هرر تحت الحكم المصرى

تحتل بلاد العدال وهرر مكاناً بارزاً بين بلدان شرق أفريقيا ــ سواء بالنظر إلى موقعها الجغرافى أو ماضيها التاريخى . . وموضعها كمركز هام لأعمال البحث والاستكشاف . لكن رغم هذه الأهمية الكبيرة فإن هذه المناطق ظلت بعيدة عن أقلام المؤرخين ورجال البحث الجغرافى فترة طويلة استمرت حتى النصف الثانى من القرن التاسع عشر حين زارها الرحالة بورتن لأول مرة وكتب فيها كتابه المعروف[1] .

وكان بداية ازدهار هذه المنطقة فى عام ١٨٧٥ ، حينما احتلتها القوات المصرية بقيادة اللواء محمد رؤف . . وقد عاد هذا الاستيلاء على العلم بمزايا كثيرة . فقد كان بين رجال الجيش المصرى ضباط اقتصرت مهمتهم على وصف البلدان التى يخترقونها أثناء زحفهم ــ ودراسة أحوال السكان وعلاقتها بالبلاد المجاورة . ورسم مدينة هرر على الخريطة . وباختصار جمع أعظم الفوائد الممكنة من النواحى الجغرافية والاثنوجرافية فى هذه الأماكن . وقد اكسسب فخراً خاصاً فى هذه الأعمال ضابط يدعى اللواء محمد مختار ــ إذ لم يقتصر على وصف منطقة صومال عيسى فحسب بل بحث أيضاً قبائل عيسى الكثيرة ووصفها واستكشف مدينة هرر وعلاقاتها فى أثناء إقامته القصيرة حسب الإمكان . وكذلك رسم بالاشتراك مع زميل له يدعى عبد الله فوزى ــ خريطة لمدينة هرر .

* * *

وبينما كان المصريون فى نشاطهم المتواصل لاستكشاف بلاد الصومال وهرر . . . وصل إلى هذه الجهات عالم نمسوى فاضل ــ هو الدكتور فيليب پاولتشكه Philpp Paulitschkc ما أن عرف المصريون قصده ــ حتى تلاقت

(١) Burton : First Footsteps in East Africa. London 1856.

الرغبات — فأسرعوا اتقديم المساعدات والنصائح اللازمة له . . فهيأوا له بذلك الجو الصالح للدراسة والاطلاع والإنتاج المثمر . وقد أشاد بذلك فى مؤلفاته وأثنى على همة المصريين وتشجيعهم للعلم والعلماء .

ويعد پاولتشكه من الباحثين القلائل الذين عنوا بدراسة هذه الجهات دراسة مستفيضة وأخرج فيها عدة بحوث كان أهمها كتاب بالألمانية عن الكشف الجغرافى فى بلاد العدال وهرر[١] وقد تناول فيه الكلام عن بداية معرفة الناس بمنطقة شرق أفريقيا — وقدم لنا البيانات التى جمعت عن هذه البلاد منذ عهود الفراعنة والإغريق والرومان والعرب . . ثم بداية العصر الحديث أيام ماركوبولو وأصحاب الخرائط من الغرب . . وأشار بنوع خاص إلى الرحالة البرتغاليون والعلماء الجاعون لما بذلوه من جهود ممتازة فى سبيل الكشف عن خبايا هذه المناطق . ثم تناول بعد ذلك الكلام عن الرحالة المعاصرون الذين كانوا يقصدون الحبشة ويمرون بالساحل الشرقى لأفريقيا والنتائج التى وصلوا إليها والتى انتفع هو بها فى رحلته.

وكتابه الثانى[٢] عن هرر قسمه إلى قسمين . . الأول وصنى وصف فيه رحلته فى بلاد هرر وعيسى والصومال وتعرض فيه لتاريخ هرر إجمالا حتى نهاية العهد المصرى — وكان جل اهتمامه مركزاً حول جمع اكثر المعلومات التاريخية والاجتماعية عن هذه الجهات . أما القسم الثانى فعلمى أورد فيه ما قام به من أعمال فلكية ومغناطيسية وطبوغرافيه — ويومياته الجوية ثم سجل المجوعات النباتية والأحجار التى جمعها — كذلك عنى بنشر وثائق تاريخية عن هرر تبحث تاريخها منذ أيام البطل الفاتح أحمد جران الذى فتح الحبشة فى أوائل القرن السادس عشر .

أما بحثه الثالث[٣] . والذى نحن بصدد عرضه — فهو مقال نشره فى مجلة الجمعية الجغرافية الخديوية باللغة الفرنسية عن « هرر تحت الحكم المصرى » .

---

(١) Paulitschke : Die Geographioche Erforschung der Ada -Lander und Harrar in Ost Afrika. Leipzig 1888

(٢) Le Harrar sous L'Administration Egyptienne (1875-1885). Bulletin de La Societe Khediviale de Geographie du Caire serie No. 10 Mars 1887.

(٣) Paulitschke; Harrar, Forschungsreise Nach den Somal und galla Landern Ost-Afrika- Leipzig 1888.

استهل المؤلف بحثه بالكلام عن حالة الفوضى التى كانت سائدة فى هرر قبل دخول المصريين . . وكيف كان أميرها محمد عبد الشكور يظلم رعيته — فى الوقت الذى أحنى فيه هامته لقبائل الجالا المجاورين له — خوفاً . . وذلك لما لمسه فيهم من قوة الشكيمة .

ثم انتقل إلى الكلام عن الفتح المصرى والظروف التى لابسته . فقال أن القوة المصرية التى ذهبت لفتح هرر بقيادة اللواء محمد رؤف للاستيلاء على هذه الجهات لم تكن كبيرة العدد إلا أنها لم تجد مقاومة بالمرة . . بل على العكس — تقابل فى كل مكان بوفود من أعيان الجهة التى تحل بها — يقدمون للقائد المصرى الطاعة والولاء .

والظاهر أن الجالا قد خشوا من وجود منافس قوى لهم فى هرر — وهذا هو السبب الذى دعاهم إلى التصدى للقوات المصرية فى منطقة إيغو . ولكن اللواء رؤف بذل جهداً استطاع فى نهايته أن يقضى على مقاومتهم ويهزمهم فى واقعتين استمرت أحدهما سبع ساعات . وكانت هاتين الواقعتين هما كل المقاومة التى صادفتها القوات المصرية فى زحفها . وفى يوم ١١ أكتوبر دخل رؤف باشا هرر فى قوة مؤلفة من ١٥ أورطة من المشاة — وبعض مدافع جبلية و ٢٠٠ جندى باشبوزق . ونقل مركز قيادته إلى سراى أمير المدينة الذى قدم لزيارته وتبادل المجاملات معه . وقد قدم إليه القائد منحة تبلغ ٨٠٠ ريال له و ٢٠٠ لابنه و ٢٠٠ لعائلته .

ثم تناول پاولتشكه بعد ذلك الحالة العامة فى هرر . . فتحدث عن التدهور الحالى والاقتصادى والسياسى الذى وجد عليه رؤف باشا هذه البلاد . . فقال إن هذه المقاطعة التى كانت مزدهرة من عهد أحمد جران فى القرن السادس عشر أصبحت فى حالة من الفساد يرثى لها . . وليس أدل على ذلك أنها لم تعد تستطيع السيطرة على شبر واحد من أراضى الجالا المجاورين لهم . كما أن الطبقة الوسطى لم يعد لها كيان — وأصبحت تحت رحمة الطبقة الحاكمة . . وذلك لأن أفرادها تهاونوا فى حقوقهم . أما الصناعة والتجارة فلم يعد لها نشاط يذكر .

وكان أول عمل جليل فكر فيه المصريون هو إنقاذ البلاد من غارات الجالا

ورأى رؤف باشا أنه فى حاجة إلى إمداد . . فكتب بذلك إلى المختصين . وفى الشهر الرابع من دخوله هرر — وصله مدد مؤلف من أورطتين مشاة وبطارية مدافع جبلية و ١٠٠ جندى باشبوزق — تحت قيادة عبد القادر باشا ونادى باشا . ثم ما لبث أن أرسلت له قوة ثانية بقيادة الضابط محمد مختار . وبفضل هذه الإمدادات تحسن مركز المصريين فى هرر — وصار فى إمكانهم مدافعة الجالا والانتصار عليهم — رغم الصعوبات التى صادفتهم — وكان النصر حليفهم فى النهاية .

* * *

وقد رأى رؤف باشا أن يقوم بأعمال يدعم بها الحكم المصرى — فوضع نظاماً لحفظ الملكية — وبنى فى هرر محلا مخصوصاً للحكمدارية وأربع قشلاقات للجنود — وجامعاً وعدداً كبيراً من المنازل .

ومن المعروف أن رؤف باشا كان الآمر الناهى فى هرر — لأن الأسرة الحاكمة التى كان مفروضاً أن يرجع إلى أميرها لاستشارته — توفى عميدها فى بداية العهد المصرى — ولم يكن هناك أحد جديراً بثقة الأهالى والحكومة المصرية ليحل محله فى منصب الإمارة . وقد تمكن رؤف باشا بفضل ما تحلى به من الخلق الكريم — أن يأسر قلوب الأهالى وينزل فى نفوسهم مكاناً رفيعاً حتى لقبوه « بالوالد » . وقد بلغ من شدة عطفه على الأهالى أنه لم يفكر يوماً فى استخدامهم للقيام بالأعمال العمرانية التى قام بها والتى استلزمت نوعاً من السخرة . . بل فضل أن يقوم العساكر المصريين بهذه الأعمال الشاقة . فكان ذلك مدعاة لحقد جنوده عليه — وشكوه فعلا للجنرال غوردون حكمدار السودان — حينما زار هرر فى رحلة تفتيشية سنة ١٨٧٨ . وما أن تأكد غوردون من أن رؤف يجامل الأهالى ويخطب ودهم — حتى ساورته الوساوس فى أنه يريد الاستقلال بهرر . ومن ثم عمل على إرجاعه لمصر فوراً . وتم تعيين رضوان باشا حاكم بربره محله — الذى ما كاد يشرع فى مواصلة أعمال سلفه العمرانية حتى انتشرت الشائعات عنه بأنه يساعد على تجارة الرقيق فاستبعد من منصبه — مع أن هذه التهمة لم يكن

لها نصيب من الصحة .

* * *

وفى يونيو عام ١٨٨٠ — تم تعيين محمد نادى باشا حاكماً على هرر — وكان نادى باشا مثالا للحاكم اليقظ الحازم — فاستطاع أن يوطد الأمن فى البلاد والقيام بأعمال نافعة لتنظيمها . . وأقر النظام بين العساكر المصرية مما أكسبه تقدير الجميع — وفى عهده أطلق حرية المذاهب وحرية الدين . فأباح للمرسلين الكاثوليك بمزاولة نشاطهم الدينى . . كما أنشأ الحصون ودعم الدفاع . ثم أنه كان حريصاً على توسيع نطاق التجارة فى بلاده لأنها أساس اقتصادياتها وبادل المتاجر مع الأوربيين . . كما أنه عمل على تشجيع الزراعة ودفعها إلى الأمام وقد زاد عدد العساكر المصرية فى هرر زيادة كبيرة فى عهده . . ولكن رغم كل هذه الجهود التى بذلها نادى باشا للنهوض بهرر — إلا أنه لم يسلم من الوشايات والدس . . فقد أتهم بعده أمور باطلة . . استدعى على أثرها إلى القطر المصرى وعين بدلا منه على رضا باشا . . وقد امتاز بالحلم ودماثة الخلق حتى اكتسب محبة الجميع — وعلى عهده تحسنت الأحوال فى هرر — وكان أبرز ما قام به — هو مقاومته لأدعياء الطب والضرب على أيديهم فأنقذ بذلك الأرواح من جهلهم .

* * *

بعد ذلك انتقل الكاتب إلى الكلام عن الفترة التى غادر فيها المصريون هذه الجهات — فقال أنه فى عام ١٨٨٤ — اقتضت الأحوال السياسية استدعاء العساكر المصريين من جميع بلاد هرر . وقد نزل هذا الخبر على الأهالى نزول الصاعقة — وخاصة بعد ما علموا بتعيين نجل الأمير — عبد الله عبد الشكور أميراً مستقلا عليهم .

وقد تمت الإجراءات التمهيدية فى شهر نوفمبر لترحيل المصريين الموجودين بهرر وعددهم ٨٥٧١ نفساً — وذلك حينما قدم إليها رضوان باشا — ومعه بعض الضباط الإنجليز بقصد اتخاذ التدابير اللازمة لإخلاء هرر من العساكر المصرية.

وكان لقرار الإخلاء هذا أثره السيء بالنسبة للحكومة المصرية — والمصريين الموجودين بهرر . . فقد أصيب الطرفان بخسارة جسيمة . فالحكومة تحملت وحدها نفقات الإخلاء وتصفية أملاكها بلا مقابل — أما المصريين (جنوداً وضباطاً وموظفين) . . فمن المعروف أنهم كانوا قد عملوا على الاستقرار التام فى هذه البلاد — فتزوجوا من بناتها واشتروا الأراضى الفسيحة . . ولكن فى لحظة وجيزة انقلبت الأمور على غير ما توقعوه . . واضطروا مكرهين إلى بيع هذه الأراضى بأبخس الأثمان .

ثم عرض بولتشكه بعد ذلك ما قام به الحكام المصريون إجمالا فى هرر — فقال أنهم ركزوا جهودهم ومزيد اهتمامهم بشئون الأراضى وزراعتها — وخاصة حينما عرفوا أن أراضى هرر من أخصب الترب فى أفريقيا . كذلك كان من بين الأمور الجليلة التى قامت بما الإدارة المصرية — هو قضائها على كل ما يهدد الأمن — فنشرت بذلك الطمأنينة والسكينة — وأصبحت القوافل القادمة من زيلع تسير آمنة لا يهددها خطر قطاع الطريق . كذلك أنشأت عدة مراكز حربية لوقاية البلاد وحفظ النظام فيها . . كما أنها أسست مدينة جالديسا وفتحت الطريق منها إلى هرر وبلادشوا . . وجلبت المياه إلى الطريق المذكور .

وقد عمت إصلاحات الحكام المصريين جميع مناحى الحياة فى هرر . فمن الأمور التى عنوا بها تنظيم عقود الزواج ؛ وتسجيل الممتلكات بكافة أنواعها كالمنازل والبساتين والاهتمام بشئون الصحة — فأقاموا مستشفا كبيراً أمام باب الترك[1] — كما أصدرت الإدارة المصرية أوامرها المشددة بضرورة إبلاغها عن كل حادثة وفاة تقع حتى ترخص لها بالدفن . . فتقوم بهذا الإجراء المتبع فى البلدان المتمدينة . كذلك نظمت تلقيح الأطفال فمنعت الطريقة التى كانت سائدة أيام الأمراء والتى كانت تؤدى بأرواح الكثيرين منهم . . كما عمل الحكام المصريين على القضاء على كل ما يهدد الصحة . . ومن ذلك الأمر الذى أصدره رضوان باشا بمنع شرب البوظة وتعاطى القات . . وبالإجمال كل

---

(١) وهو أحد الابواب الخمسة التى تخلل سور مدينة هرر

المشروبات والمكيفات المضرة بالصحة .

ثم أورد باولتشكه بعد ذلك إحصاء ليدلل به على مدى عمر ان هرر فى ظل الحكم المصرى . . فقال أن عدد سكانها عام ١٨٧٥ — أى عندما دخلها المصريون — كان ٣٠,٠٠٠ نسمة فى حين بلغ عددهم عام ١٨٨٥ حينما غادروها ٤٢,٠٠٠ نسمة . وكان فى هرر عام ١٨٧٥ ٦,٠٠٠ منزل و ٢,٠٠٠ كوخ — وفى عام ١٨٨٥ — بلغ عدد المنازل ٨,٠٠٠ وعدد الأكواخ ١,٥٠٠ .

وتكلم بعد ذلك عن إصلاحات أخرى قام بها المصريون . . فقال أن الأحوال التجارية كانت فى تقدم مستمر من سنة إلى أخرى . وازداد عدد التجار — وأصبحت العملة المصرية هى السائدة بعد أن انعدمت قيمة العملة التى كانت مستعملة أيام الأمراء . أما عن الرسوم الجمركية فإنها زادت على بعض أصناف البضائع فى الوقت الذى نقصت فيه بالنسبة لكثير من الواردات الضرورية التى يحتاج إليها الأهالى .

ومن الأعمال المشرفة التى قامت بها الإدارة المصرية — هو تضييقها الخناق على تجارة الرقيق . . وقضت على نشاط النخاسين . وكذلك عملوا على تشجيع تجارة الصمغ والعاج . وليس أدل على ازدهار التجارة أيام الحكم المصرى — أن عدد القوافل التى كانت تصل إلى هرر أيام الأمراء كان سبعون قافلة . . ووصل هذا الرقم إلى ٤٠٠ أثناء العهد المصرى . كما أن عدداً كبيراً من التجار الهنود والإيطاليين واليونانيين استوطنوا هرر — وكانوا كلهم يشتغلون بالحرف المختلفة التى عادت بالفائدة على البلاد .

وفى الوقت الذى نشطت فيه التجارة . . وجه المصريون جهودهم أيضاً نحو الزراعة فزرعوا العنب والرمان والخوخ والليمون وجميع أنواع الفواكه والخضروات التى كانت تزرع فى الدلتا والصعيد كالقمح والشعير وقصب السكر والبطاطس وغيرها .

وقد أدى هذا النشاط الكبير فى ميدانى التجارة والزراعة فى هرر — إلى نشاط مماثل فى كل مدن وقرى الجالا المجاورة . . وخاصة تلك التى أعجبت بالحكم المصرى فانضوت تحت لوائه .

وقد ختم المؤلف مقاله بقوله أنه يقرر بأن كل شخص يطوف بهذه البلاد يعلم ويرى مقدار تعلق الأهالى بالمصريين — وحبهم وحنينهم إلى عهدهم المذهر وتأسفهم البالغ على زوال الإدارة المصرية فى هذه الجهات .

محمد المعتصم سيد